

الحياة الادبية في الحجاز

للاستاذ أحمد أبو بكر إبراهيم

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

—•••••—

طل حال التعليم هكنا حتى تولى أمر الحجاز عاهل الجزيرة العربية الملك عبد العزيز فعمل جاهداً على نشر الثقافة في هذه البلاد لتسير النهضة القوية في البلاد العربية الشقيقة ، وقد استطاع في هذه الفترة الوجيزة من الزمان أن يخلق في الحجاز جواً علمياً حديثاً يغبط عليه الحجاز الآن فهو يبشر بمستقبل قريب محقق .

والتي يدعو إلى الغبطة أن التعليم الأساسي (الأولى) والتعليم الابتدائي قد أديا رسالتهما في الحجاز في المدن على الوجه الأكمل حتى إنك لتجد الكثرة الغامرة من البنين والبنات في هذه المدن يجيدون القراءة والكتابة ، فإذا نحن تجاوزنا هذا النوع من التعليم إلى ما هو أرق منه وجدنا ابن السعود يجاهد في إحيائه ويعمل على نشره ليخرج من الحجازيين صفوة صالحة تبني الحضارة الجديدة على أسس صالحة قوية ، وقد عارض في هذه السياسة الحازمة الرشيدة في بادئ الأمر المعارضون من أهل نجد ، ولعل جلالة الملك قد لقي في هذا الصدد ما لاقاه محمد علي باشا في بداية النهضة المصرية حينما كان يحمل الناس على التعليم حملاً فيلحق منهم أنصاراً وإعراضاً .

ومن ثم صار في الحجاز في العهد السعودي مدارس ثانوية متعددة تدير مناهجها على غرار المناهج المصرية وقد الطلبة لثائق بالجامعتين المصريتين ، ويقوم بتدريس بعض المواد فيها أساتذة مصريون ليوحدوا بين الثقافتين ويؤلفوا بين الاتجاهاين حتى إذا ما وفد الطلبة الحجازيون إلى مصر وجدوا أنفسهم بين إخوان لهم قد أحدث ثقافتهم وتقارب مداركهم .

وفي الحرمين الشريفين الآن تدريس للملوم الشرعية والسياسة ببعض به علماء مصريون وحجازيون ومجديون وعلماء من شتقيط ويسير التدريس فيهما على نظام الحلقات حيث يلتفت الطلبة حول أستاذهم يستمعون إليه وهو يلقي درساً في الحديث أو التفسير

أو الفقه أو النحو والصرف . وهذا اللون من التعليم يكاد يكون عاماً شاملاً لأهل مكة والمدينة ، وينظم في الحلقة الواحدة الكثير منهم على اختلاف ألسنتهم وتباين أعمالهم ؛ فتجد تلميذ المدرسة بجانب التاجر أو العامل قد أصنى كل واحد في اهتمام إلى ما يليقه الأستاذ في وقت الفراغ من العمل . والجليل في هذا النوع من التعليم أن الحجازي لا ينجح عن الانتظام في سلكه مهما تقدمت به السن ، وهو كذلك يتعلم رغبة في العلم ، وطلباً لإدراك أسرارها ولا يريد من وراء ذلك عملاً ولا شهادة .

والنقص الظاهر في علوم الحرمين خلوها من الآداب فليس من بينهم من يتصدى لتدريس النقد والسرقات أو تاريخ الأدب والنصوص حتى يأخذ بيد المتعلمين إلى فهم الأدب وتذوق أسرارها ومعرفة مواظن الجمال فيه .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن التعليم على اختلاف أنواعه في الحجاز يخرج علماء حفظه ، ولا يخرج أدباء قادرين .

فكيف إذا استطاع أدباء الحجاز أن ينهضوا هذه النهضة وأن ييلفوا هذه المنزلة في الشعر والنثر ؟

إن الفضل الأكبر في ذلك راجع إلى الاطلاع الحر والمجهود الذي يبذله الأديب معتمداً على نفسه في قراءة الكتب التي تحوله وتتفق وذوقه . وهذا المجهود ملحوظ ظاهر في ناشئة الحجاز إذ لا يكاد الطالب في المدارس الابتدائية وغيرها ينال قسطاً من التعليم حتى تتوق نفسه إلى الاستزادة من الأدب العربي والثقافة العامة الواسعة ، وغاية ما يأمل الشاذي في الأدب منهم أن يستطيع بعد القراءة السائمة أن يصل إلى نظم الشعر ليثقي في المحافل أو كتابة النثر في الجرائد فإذا ما وصل إلى هذه الغاية تجدته له آمال أخر فواصل القراءة ودأب على التحصيل حتى يصبح من الشعراء المدودين في هذه البلاد .

هذا الروح وهو الاطلاع الحر ولده في الحجازيين إكبارهم لأضيهم وعنايتهم بمجدهم السابق وأملهم الواسع العريض في أن يعود ذلك المجد قوياً ثابتاً كما بدأ في هذه البلاد ، فقد علموا أن أقرب طريق يوصلهم إلى بقيتهم إنما هو طريق الاعتماد على النفس في استيعاب الآداب القديمة والحديثة والمعارف المنقولة إلى لغاتهم ولعل الذي مهد لهم سبيل الاطلاع ، فراغهم في كثير من

يقول الدكتور هيكل باشا : « إن عنايتهم بالأدب المصرى تفوق عنايتهم بالآداب الأخرى » .

وهذه العناية التى يذكرها هيكل باشا لم تكن إلا فى السنين القليلة الأخيرة حينما قامت مؤلفات المصريين مؤلفات غيرهم فى بلاد الحجاز وحينما راجت صحفهم هناك ، ولكن الأساس الذى بنى عليه الحجازيون أدبهم والمعين الذى استمدوا منه مناهجهم إنما هو أدب المهجر ؛ ولذلك نراهم إلى الآن متأثرين أشد التأثر بأساليب هذا الأدب وطرائقه وإن مالت طائفة منهم إلى اتباع طريقة المصريين وفى بيان هذه الحقيقة يقول الأستاذ أحمد العربى : « أما أدب اليوم فهو وإن كان أدبا فنيا ما يزال فى الطور الأول من أطوار نموه ونضوجه ، فهو ماض فى طريقه إلى الأمام ، سائر بخطوات ناجحة موقفة لا يسع النصف تجاهلها أو النض من شأنها . ويرجع الكثير من الفضل فى ذلك إلى آثار أدباء العربية المصريين التى تجاوب صداها فى الشرق العربى فكان لها أحسن الأثر فى توجيه الأدب العربى وتلقيحه بلقاح الحياة والطريقة والتجديد ، وقد كانت أثر أدباء المهجر من السوريين أقوى وأظهر فى أدبنا الحديث حتى عهد قريب . أما الآن فقفنا بدأ يتحرر قليلا من قيود التقليد وأخذ يستد ساعده وإن كان يتخذ لنفسه أعلام الأدباء المصريين أثرا متميزا فى هذه العنقود الأخيرة » ومع أن ثقافة الحجازيين لا تعدو الثقافة العربية ، لأنهم لم يختلطوا بالأوروبيين كما اختلط غيرهم إلا أنهم فى العهد الأخير قد استطاعوا أن يستوعبوا الكثير من ألوان هذه الثقافة استيعابا يغبطون عليه : فهم يقرءون الكتب المترجمة عن هذه اللغات ، وهم يقرءون إنتاج المثاقفة الأجنبية من أدباء مصر والشام والعراق وأمريكا فى شوق وعناية ، وقد استطاعوا باطلاعهم الحر على هذه الثقافة أن يثروا وثبة فكرية موقفة بدت آثارها فيما يكتبون ويشعرون .

وإلى عهد قريب لم يكن تعليم اللغات الأجنبية نصيب فى مناهج التعليم الحجازى ، فأحس الأدباء حاجتهم إلى معرفة هذه اللغات ليتصلوا بالنهضة المتوثبة فى بلاد الغرب . ويعبر عواد عن هذه الحاجة قائلا : « كم هى شديدة حاجتنا فى الحجاز إلى اللغة الإنجليزية خصيصا وإن عليها لمعولا ضخما فى استعمال العلاقات

الأوقات ، وبخاصة فى غير موسم الحج - عندئذ يجدون عندهم الوقت منسما للاستزادة واستيعاب ما حوته الكتب . وثمة سبب ثالث هو خلو بلادهم مما يشغل الناس فى الأقطار الأخرى من ضروب اللهو ومقازن المذنية ؛ فأعمال الحجازى مقسمة بين العمل والمباداة والتعلم .

والكتب التى يطلع عليها الحجازيون كثيرة متنوعة : فهم يقرءون الكتب العربية القديمة ليتأثروا صياغتها وأساليبها ويجدون هذه الكتب هناك فى المكتبات العامة التى احتوت على كثير من الكتب وبعضها فريد نادر ، وهم كذلك مولعون بشراء ما يطبع منها فى بلادهم وفى الأقطار الأخرى .

غير أن عنايتهم بالكتب الحديثة تفوق عنايتهم بالكتب القديمة ؛ فهم يقرءون كل ما يصدر منها فى مصر والشام والعراق وأمريكا وإقبالهم على هذه الكتب بالغ حد الإعجاب ؛ فلا نجد هناك شاديا فى الكتابة ولا بادئا فى الشعر إلا وهو يعلم عن أدبائنا المصريين ما يجمله كثير من المصريين المتعلمين ، ثم هو يحيط بانتاجهم ومؤلفاتهم إحاطة وافية ويدرك منازعهم وطرائقهم : فليس منهم من يجمل مؤلفات الدكتور طه حسين بك ، والدكتور هيكل باشا ، والأستاذ العقاد ، والأستاذ أحمد أمين بك ، والأستاذ « الزيات » ، والدكتور زكى مبارك وغيرهم . بل ليس منهم من يجمل أسلوب كل واحد من هؤلاء وخصائصه والموضوعات التى أجاد فيها وهو يتحدث عن كل أديب حديث الوائى الملم بما يقول . ولا تقف معرفتهم هذه عند حد الإعجاب بالأدب : فهم يختلفون إزاءه أحزابا ؛ هذا يفضل أسلوب الزيات لروائه ورواقه ، وبراعة تصويره ؛ وذلك يفضل أسلوب العقاد لدفقة تعبيره ، وتسلسل معارفه وقوة حجته ، وآخر يتحيز لأسلوب الأستاذ أحمد أمين بك لعمق الفكرة والاستقصاء ، والدقة فى الأداء ، وغيره يؤثر أسلوب الدكتور طه حسين بك بمجبا بسهولته وتجليته للحقائق . وهكذا ، وقد يتخذون من أدب هؤلاء وغيرهم مجالا للنقد والتحليل فتزخر صحفهم ومجلاتهم بتقديم الأدب المصرى . وما قلناه فى تأثرهم بالأدب المصرى نرى مثله فى تأثرهم بالأدب الشامى والعراقى ، وأدب المهجر بأمريكا .

ولكن أى هذه الآداب أشد تأثيرا فى أدب الحجازيين ؟